

شعر الخريف على ورق الشجر

الكاتب



عبد اللطيف الزبيدي

هل الطبيعة شعر كُتب بالفيزياء والكيمياء؟ جاليليو جاليلي ذهب إلى ما هو أبعد، حين قال: «إن العالم كتب بلغة الرياضيات». لكن جمال الرياضيات ذهنيّ، أما الفيزياء والكيمياء، فهما مرابع الحواس ومراتعها. حين قرأ القلم قبل عقود مقولة الفيلسوف البريطاني برتراند راسل: «إن لغة المستقبل ستكون معادلات»، قال: يا إلهي، كيف سيستمع القادمون بشعر يسطره الشعراء في معادلات؟ لكن، لا معنى بعدُ لمثل هذا السؤال عندما تُبحر أسرع فكر في عوالم الطبيعة.

لا ترحل بنا بعيداً إلى الأكوان القصيّة، لا تغامر بالإلقاء بنا في معابر الثقوب السوداء، أو مزاعم الثقوب الدودية، فتلك ملاحم كونية، حتى علماء الفيزياء لا يعلمون قطرة من بحر شرحها. نحن تكفيها مقطوعة شعرية حبرتها الطبيعة بأوراق الخريف. هل تعرف ما الذي يحدث لأوراق الشجر، عندما يأتي الخريف، وثياب الغاب تُنثر؟ لماذا تنضو الأشجار عنها أوراقها؟ هل تدري من ترى أوحى إليها. لا يمكن أن تبدع شعراً كهذا يد المصادفة، أيّ عمل عشوائي يستطيع أن يؤلف سيمفونية كهذه، في كل أصقاع الأرض، كل خريف؟

في المناطق الباردة بصفة خاصة، المتوسطة في الارتفاع عن سطح البحر، والمرتفعة، يطل الخريف فإذا خضرة الأشجار تتذهّب، أو تصبح نحاسية، برتقالية. مليارات الأوراق تتناثر كأنها تقرأ ميخائيل نعيمة: «تناثري، تناثري، يا بهجة النظر.. يا مرقص الشمس، يا أرجوحة القمر.. يا أرغن الليل ويا قيثاره السحر.. تناثري تناثري». الوحي المسطور في الحمض النووي يقود الأشجار. عندما تبدأ درجات الحرارة تنخفض، في مطلع الخريف، تنتقل الأشجار إلى النظام الذي يجعلها تحيا بجهد قليل وتقتصد في استهلاك الطاقة طوال الشتاء. إذا كان الجذع والأغصان يكسوها اللحاء، والجذور تحت الأرض في حمى، فإن الأوراق لا تملك ما يقيها غوائل انخفاض درجة الحرارة إلى حدود قاسية. الأوراق مغطاة بمستقبلات ضوئية تستشعر أن النهار صار يتقاصر، ما يجعلها تطلق الإيثيلين بكثافة، وهو هورمون نباتي تفرزه الأشجار. تلك إشارة تحملها على إنتاج سدّادات من الفلين لعزل الأوراق عن شبكة النسغ، السائل الذي يغذي الشجرة.

عند انقطاع الماء والمعادن، تفقد الأوراق مرونتها والتمثيل الضوئي الذي ينتج اليخضور. عندها تسود الملونات الحمراء والصفراء والبرتقالية. أدنى هبة ریح: تناثري تناثري. (المعلومات من موقع: مستقبل العلوم، الفرنسي).
لزوم ما يلزم: النتيجة السحرية: هل تستطيع الفصل بين الشعر والعلم في لغة الطبيعة؟
abuzzabaed@gmail.com

"حقوق النشر محفوظة" لصحيفة الخليج. © 2024.